مقدمة ابن خلدون

بقلم

الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

رئيس قسم الفلسفة والاجتماع بكلية الآداب
بجامعة القاهرة (سابقاً)

بسم الله الرحمن الرحيم

سنعرض فى القسم الأول من بحثنا هذا سيرة تحليلية لمؤلف المقدمة . ثم ندرس فى القسم الثانى « المقدمة » نفسها ، فنلخص موضوعها ، ونبين أغراضها ومنهجها فى البحث وأثرها فى التراث الإنسانى ، مستشهدين فى كل نقطة من هذه النقاط بطائفة من نصوصها . ثم نختم البحث بقسم ثالث نعرض فيه بإيجاز أهم الآثار الأخرى لابن خلدون .

وسنحيل فى بحثنا على مؤلفات ابن خلدون بالمصطلحات الآتية توخياً للإيجاز :

« المقدمة ، البيان » نقصد بذلك مقدمة ابن خلدون طبعة لجنة البيان العربى ، وهى الطبعة التى حققنا فيها المقدمة ، وشرحناها ، وعلقنا عليها ، ونشرنا فيها الفقرات والفصول الناقصة من طبعاتها . وقد ظهرت فى أربعة أجزاء كل جزء منها فى نحو أربعمائة صفحة من القطع الكبير . وتشتمل هذه الأجزاء على نحو ثلاثة آلاف تعليق فى هوامشها .

« المقدمة ، كاترمير » نقصد بذلك مقدمة ابن خلدون طبعة باريس التى أشرف عليها المستشرق كاترمير وظهرت سنة ١٨٥٨ م .

« العبر » نقصد بذلك الكتابين الثانى والثالث من كتاب « العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » طبعة بولاق التى تم ظهورها سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٨ م) فى سبعة مجلدات ، خصص أولها للمقدمة ، والستة الأخيرة للكتابين الثانى والثالث فى تاريخ الشعوب السابق ذكرها ، وهما الكتابان اللذان نعنيهما بهذه الإحالة .

« التعريف » نقصد بذلك كتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » وهو الكتاب الذى ترجم فيه ابن خلدون لنفسه وألحقه بكتابه العبر . ونحيل على هذا الكتاب فى طبعة « لجنة التأليف والترجمة والنشر » التى ظهرت سنة ١٩٥١ ، وهى الطبعة التى حققها وعلق عليها الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى .

القسم الاول

سيرة تحليلية لمؤلف الكتاب

١ — أسرته ومولده ونشأته وتلمذته :

هو عبد الرحمن أبو زيد ولى الدين ابن خلدون . فاسمه عبد الرحمن ؛ وكنيته أبو زيد ؛ ولقبه ولى الدين وشهرته ابن خلدون . ويظهر أنه قد اكتسب كنيته من اسم ابنه الأكبر حسب ما جرت عليه عادة العرب فى الكنية ، وإن كنا لا نعرف عن طريق يقيني أسماء أولاده . وأما لقب ولى الدين فقد لقب به حينما تولى منصب قاضى قضاة المالكية فى مصر ؛ فقد جرت العادة حينئذ أن يلقب من يتولى وظيفة قاضى القضاة بلقب رسمى خاص يمنحه السلطان إياه . واشتهر بابن خلدون نسبة إلى أول من دخل الأندلس من أجداده ، وهو خالد بن عثمان الذى اشتهر فيما بعد باسم « خلدون » وفقاً للطريقة التى جرى عليها حينئذ أهل الأندلس إذ كانوا يضيفون إلى الأعلام واواً ونوناً للدلالة على تعظيمهم لأصحابها .

وكثيراً ما كان يضاف إلى اسم ابن خلدون صفة الحضرمى ، لأن أسرته ترجع إلى أصل يمانى حضرمى ، ويتصل نسبها بالصحابى وائل بن حجر . ويحرص ابن خلدون نفسه فى مؤلفاته على إضافة صفة الحضرمى إلى اسمه .

وقد نشأ بنو خلدون بمدينة قرمونة بالأندلس، وهى التى استقر بها جدهم خالد بن عثمان ، ثم نزحوا بعد ذلك إلى أشبيلية ، ثم هاجروا إلى المغربين الأدنى والأوسط ، واستقر معظمهم فى تونس .

* * *

وفى تونس ولد عبد الرحمن بن خلدون فى غرة رمضان سنة ٧٣٢ ﻫ (٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م) . ولما بلغ سن التعلم بدأ بحفظ القرآن وتجويده وطلب العلم : وقد تتلمذ على أبيه وعلى عدد كبير من شهيرى علماء تونس لعهده . فدرس عليهم العلوم الشرعية والعربية والطبيعية والرياضية وعلوم المنطق والفلسفة . وكان فى نيته أن يتفرغ للعلم كما فعل أبوه من قبل . ولكنه لما بلغ الثامنة عشرة من عمره عاقه عن متابعة دراسته حادثان : أحدهما وفاة أبيه ومعظم من كان يأخذ عليهم العلم من شيوخه فى الطاعون الجارف الذى اجتاح العالم فى منتصف القرن الثامن الهجرى ؛ وثانيهما هجرة معظم العلماء والأدباء الذين أفلتوا من هذا الوباء من تونس إلى المغرب الأقصى .

وقد تغير من جراء ذلك مجرى حياته الذى رسمه لنفسه ، واتجه إلى تولى الوظائف العامة ، وخوض غمار السياسة ، والسير فى الطريق نفسه الذى سار فيه جداه الأول والثانى وكثير من أفراد أسرته .

٢ — وظائفه ونشاطه فى المغرب والأندلس قبل شروعه فى تأليف كتاب « العبر »

استأثرت بعد ذلك الوظائف الحكومية والمغامرات السياسية بأكبر قسط من وقته ونشاطه فى أثناء فترة طويلة استغرقت زهاء خمس وعشرين سنة من حياته (من سنة ٧٥١ إلى سنة ٧٧٦ ﻫ) .

غير أنه يبدو أن هذه الأمور لم تكن لتمثل مطامحه واستعداداته الحقيقية فى شىء ، وأنه قد اندفع إليها اندفاعاً واضطر لخوض غمارها اضطراراً عن غير حب ولا رغبة .

ومن أجل ذلك كان يتحين الفرص التى كانت تتاح له فى أثناء هذه المرحلة ليعاود القراءة والاطلاع

وتلقى العلم وتدريسه ، وليرضى بذلك أكبر رغبة كانت كامنة فى نفسه ، وهى رغبة عميقة امتازت بها شخصيته الحقيقية ، وأفاد منها التراث الإنسانى أكبر فائدة ، وسجلت اسمه فى عالم الخلود .

وأول وظيفة تولاها كانت فى أواخر سنة ٧٥١ هـ وكانت وظيفة «كتابة العلامة» للوزير محمد ابن تافراكين الذى كان حينئذ وصياً على صاحب عرش تونس الصغير ومستبداً بشئون الحكم . وكانت تطلق كلمة « العلامة » على « وضع الحمد لله والشكر لله بالقلم الغليظ فيما بين البسملة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم » (التعريف ٥٥) . ويظهر أنها كانت تحتاج إلى شىء من الإنشاء والبلاغة حتى تأتى متسقة مع موضوع المخاطبة أو المرسوم .

ولما دالت دولة إبن تافراكين فى أوائل سنة ٧٥٣ هـ ترك ابن خلدون تونس وسار مطوفاً فى البلاد حتى ألقى عصا التسيار فى بسكرة (من بلاد الجزائر) حيث قضى شتاء ذلك العام . ويبدو من بعض شواهد أنه تزوج فى أثناء هذه الفترة ، وأن زواجه كان حوالى سنة ٧٥٤ هـ . ثم رحل بعد ذلك هو وأهله إلى قسنطينة (من بلاد الجزائر) .

وفى سنة ٧٥٥ هـ هاجر إلى فاس فى صحبة السلطان أبى عنان سلطان المغرب الأقصى حينئذ ، تاركاً أهله فى قسنطينة ، وتولى فى بلاط هذا السلطان وظيفة الكتابة والتوقيع . وكانت كلمة « التوقيع » تطلق حينئذ على كتابة الأوامر والقرارات السلطانية بعبارة موجزة بليغة . وكان هذا المنصب لا يتولاه إلا كبار الكتاب . وهذا يدل على أن ابن خلدون كان قد وصل فى هذه السن المبكرة (كان حينئذ فى نحو الثانية والعشرين من عمره) فى ميادين الأدب والكتابة إلى منزلة رفيعة ، وأن شهرته فى هذه النواحى أخذت تنتشر فى المغرب العربى :

وقضى ابن خلدون فى وظيفة الكتابة للسلطان أبى عنان نحو سنتين (٧٥٥ إلى أوائل ٧٥٨ هـ) ، ثم قضى مثلهما سجيناً على أثر مؤامرة اشترك فيها ضد هذا السلطان (٧٥٨ — ٧٦٠) ، ثم عاد إلى وظيفته وقضى فيها نحو أربع سنين متتابعات (من ٧٦٠ إلى أوائل سنة ٧٦٤) : منها نحو سنة واحدة (٧٦٠) مع الوزير الحسن بن عمر ثم مع السلطان منصور بن سليمان؛ ونحو سنتين (منتصف ٧٦٠ إلى أواخر ٧٦٢) مع السلطان أبى سالم بن أبى الحسن ؛ ونحو سنة (٧٦٣ — ٧٦٤) مع الوزير عمر بن عبدالله .

وقد ضم إليه فى عهد السلطان أبى سالم وظيفة أخرى كانت تسمى وظيفة « المظالم » . وهى « وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء . وتحتاج إلى علو يد ، وعظيم رهبة ، تقمع الظالم من الخصمين ، وتزجر المعتدى . وكأنه يمضى ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه . ويكون نظره فى البينات والتعزير ، واعتماد الإمارات والقرائن ، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق ، وحمل الخصمين على الصلح ، واستحلاف الشهود . وذلك أوسع من نظر القاضى » (المقدمة ، البيان ٥٧١) .

وأتيح لابن خلدون وهو بفاس أن يعاود الدرس والقراءة على العلماء والأدباء الذين كانوا قد نزحوا إليها من الأندلس ومن تونس وغيرها من بلاد المغرب ، ويختلف إلى مكتبات فاس التى كانت حينئذ من أغنى المكتبات الإسلامية ، فارتقت بذلك معارفه ، واتسع اطلاعه ، وسنحت له فرصة لإشباع رغباته الحقيقية ومطامحه الأصيلة .

وقد اصطنع ابن خلدون ، منذ التحاقه ببلاط السلطان أبى سالم ، فى كتابة الرسائل وتدوين المؤلفات أسلوباً جديداً يمتاز بالسهولة والوضوح ، والتعبير الدقيق عن الحقائق ، وقوة التدليل ، وترابط الفكرة ،

وحسن الأداء والتناسق ، وتخير المفردات والتراكيب العربية السليمة ، والتخلص من قيود السجع ومحسنات البديع التى كان النثر العربى مكبلا بها فى هذا العهد . وكان ذلك إرهاصاً لنهضة النثر العربى التى تمت بفضل مؤلفاته الكبيرة فيما بعد ، كما سنذكر ذلك فى القسم الثانى من هذا البحث . وفى هذه الفترة كذلك تفتحت شاعريته ، فنظم الكثير من الشعر ، وأنشد السلطان أبا سالم قصائد كثيرة فى عدة مناسبات . ويظهر أنه فى هذه الفترة نفسها قد كتب معظم ما ينسب إليه من مؤلفات صغيرة خارجة عن نطاق مشروعه العلمى الخطير الذى قام به فيما بعد وهو « المقدمة » و « كتاب العبر » .

وفى أوائل سنة ٧٦٤ هـ رحل إلى الأندلس والتحق بحاشية سلطان غرناطة محمد بن يوسف بن إسماعيل ابن الأحمر النصرى ثالث ملوك بنى الأحمر . وكان بين ابن خلدون وبين هذا السلطان ووزيره الأديب الشهير لسان الدين ابن الخطيب صداقة قديمة توثقت أواصرها منذ أن كانا لاجئين فى بلاط السلطان أبى سالم بفاس ، وكان ابن خلدون حينئذ كاتباً للسر والإنشاء والمراسم للسلطان أبى سالم كما قدمنا ، وأتيح له فى هذه الفترة أن يقدم لهما كثيراً من الخدمات .

ومن أجل ذلك احتفى السلطان ووزيره بمقدم ابن خلدون أيما احتفاء ، ونظمه السلطان فى أهل مجلسه ، وقربه إليه ، واختصه فى العام التالى (سنة ٧٦٥ هـ) بالسفارة بينه وبين ملك قشتاله بطرس القاسى Pierre le Cruel, Roi de Castille لإبرام صلح كانا يزمعان إبرامه ولتنظيم العلائق السياسية بينهما ؛ فأدى ابن خلدون مهمته بنجاح كبير ؛ وكافأه السلطان بأن أقطعه إقطاعاً كبيراً من الأرض ، فزاد رزقه ، واتسعت أحواله . واستأذن السلطان فى استقدام أسرته من قسطنطينة بعد أن ظلت نائية عنه زهاء عشر سنين ، فبعث السلطان من جاء بها ، ويسر لها شئون سفرها وانتقالها . وقضى ابن خلدون بعد ذلك بضعة أشهر فى رغد وطمأنينة .

وفى أثناء هذه الفترة كتب بعض رسائل بليغة إلى أصدقائه وغيرهم ، ونظم عدة قصائد أنشدها السلطان فى مناسبات اجتماعية وعائلية ودينية .

ثم تكدر صفو العلاقات بينه وبين السلطان ووزيره ، فغادر الأندلس هو وأسرته فى منتصف سنة ٧٦٦ هـ إلى بجاية (من بلاد الجزائر) حيث تولى منصب الحجابة لسلطانها أبى عبدالله محمد الحفصى . وكان منصب الحجابة هو أعلى منصب سياسى ، ويشبه منصب رئيس الوزراء فى العصر الحاضر ، وكان يمنح صاحبه « الاستقلال فى الدولة والوساطة بين السلطان وأهل دولته لا يشاركه فى ذلك أحد » (التعريف ٩٧)

وقدمه السلطان كذلك للخطابه فى جامع « القصبة » . وظل ابن خلدون مع هذا وذاك مواظباً على تدريس العلم بجامع « القصبة » كل يوم فى أوقات فراغه من أعمال السياسة .

وهكذا جمع ابن خلدون فى هذه الفترة بين أرقى مناصب الدولة وأرقى مناصب العلم ؛ وسنحت له فرصة طيبة لإشباع مطامحه العلمية العميقة ، وإرضاء ما كان يطفو على سطحها من تيارات تندفع به نحو السياسة .

ولما دالت دولة أبى عبدالله وسقطت بجاية سنة ٧٦٧ هـ فى يد ابن عمه أبى العباس أحمد بن أبى عبدالله محمد صاحب قسطنطينة ، أقر أبو العباس ابن خلدون فى منصب الحجابة حيناً ، ثم أقاله فى السنة نفسها ؛

وقضى ابن خلدون بعد ذلك هو وأسرته نحو سبع سنين (٧٦٧ — ٧٧٤ هـ) فى بسكرة بعيداً عن وظائف الدولة ، عاكفاً على تدبير مؤامرات وخوض مغامرات سياسية لحساب أبى حمو سلطان تلمسان (من بلاد الجزائر) ضد أبى العباس سلطان قسطنطينة وبجاية

أولا ، ثم لحساب أبي فارس عبد العزيز بن أبي العباس سلطان فاس ضد أبي حمو ثانياً .

وفى أوائل سنة ٧٧٤ هاجر هو وأسرته إلى تلمسان وكان قد استولى عليها حينئذ أبو فارس عبد العزيز سلطان فاس . وفى منتصف هذه السنة رحل مرة ثانية إلى فاس ومعه أسرته ، والتحق بحاشية الوزير ابن غازى الذى كان حينئذ مستبداً بشئون الحكم فى المغرب الأقصى بعد وفاة السلطان أبي فارس عبد العزيز ووصياً على ابنه السعيد . فأكرم ابن غازى مثواه ، وأقام بفاس « أثير المحل ، نابه الرتبة ، عريض الجاه ، منوه المجلس عند السلطان . . . عاكفاً على قراءة العلم وتدريسه » (التعريف ٢١٨ ، ٢٢٤) ؛ وإن كان لم يتول فى هذه الفترة أى منصب حكومى .

وفى سنة ٧٧٦ نشبت فتنة سياسية فى المغرب الأقصى انتهت بخلع السلطان السعيد وتنحية الوزير ابن غازى المستبد بالحكم واستيلاء السلطان أبي العباس أحمد (ابن السلطان الأسبق أبي سالم) على فاس . وقد وشى بعضهم بابن خلدون للحكومة الجديدة ، فاعتقل حيناً ، ثم أفرج عنه ، فجاز المغرب الأقصى مرة ثانية إلى الأندلس فى ربيع سنة ٧٧٦ هـ ، تاركاً أسرته فى فاس ، وشخص إلى غرناطة ، ونزل فى ضيافة سلطانها ابن الأحمر . ولكن سلطان فاس توجس شراً من استقراره فى الأندلس ، وخشى أن يدبر ضده الدسائس ، فأبى أن تلحق به أسرته ، وطلب إلى ابن الأحمر تسليمه فأبى ذلك ، فطلب إليه أن يقصيه من أرضه ، فاستجاب لهذا الطلب . واضطر لذلك ابن خلدون بعد قليل من وصوله إلى الأندلس للمرة الثانية أن يغادرها إلى بلاد المغرب .

٣ — تفرغه للدراسة والتأليف فى المغرب :

ونزل ابن خلدون سنة ٧٧٦ فى تلمسان التى كان أبو حموقد تمكن من استردادها بعد سقوطها فى يد سلطان المغرب الأقصى . وقد نزل ابن خلدون فى ضيافة سلطانها أبي حمو بعد أن غفر له هذا السلطان ما تقدم من ذنبه معه ، ولحقت به أسرته هناك . ثم عن له أن يتفرغ للقراءة والتأليف ، فغادر تلمسان فى أواخر سنة ٧٧٦ إلى قلعة ابن سلامة (من بلاد الجزائر كذلك) فى ضيافة أولاد عريف ، ولحق به أهله ، وقضى هو وأسرته فى ذلك المقر المنعزل زهاء أربعة أعوام (٧٧٦ — ٧٨٠) نعم فى أثنائها بالاستقرار والهدوء ، وتفرغ فيها لمشروعه العلمى الخطير وهو « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ، وقدم لهذا المؤلف ببحث عام فى شئون الاجتماع الإنسانى وقوانينه ، وهو البحث الذى اشتهر فيما بعد باسم « مقدمة ابن خلدون » . وقد شرع ابن خلدون فى تأليف هذا الكتاب سنة ٧٧٦ وانتهى منه فى وضعه الأول فى أواخر سنة ٧٨٠ هـ .

وكان ابن خلدون حينئذ فى نحو الخامسة والأربعين من عمره ، وقد نضجت معارفه ، واتسعت دائرة اطلاعه ، وارتقى تفكيره ، وأفاد أيما فائدة من تجاربه ومشاهداته فى شئون الاجتماع الإنسانى على العموم ، وخاصة لأنه قضى نحو ربع قرن فى غمار السياسة ، متقلباً فى خدمة القصور والدول المغربية والأندلسية ، يدرس أمورها ، ويستقصى سيرها وأخبارها ، ويتغلغل بين القبائل يتأمل طبائعها وأحوالها وتقاليدها . وكان ذهنه المتوقد ، وتفكيره الخصب ، وملاحظته السديدة ، كان كل ذلك يحمل على التعمق فى تأمل هذه الظاهرات ، ورد الأمور المتشابهة منها بعضها إلى بعض ، والبحث عن أسبابها ، والتميز بين ما ينجم عنها عرضاً وما يترتب عليها عن طريق اللزوم ، وردها إلى قوانينها العامة . فجاءت مقدمته هذه فتحاً كبيراً فى عالم البحوث الاجتماعية كما سيأتى بيان ذلك فى القسم الثانى من هذا البحث .

وانتهى ابن خلدون من كتابة مقدمته فى منتصف سنة ٧٧٩ ، واستغرق فى كتابتها خمسة أشهر فقط حسب ما يذكر هو فى خاتمتها . ويبدى ابن خلدون دهشته وإعجابه بما وفق إليه فى هذا الأمد القصير . وحق له أن يبدى دهشته وإعجابه ، لأن بحوثاً خطيرة كبحوثه فى المقدمة كانت خليقة أن تستغرق عدة سنين .

ويبدو أن نظره الفاحص الناقد كان يعمل بنشاط خلال هذه الحياة المضطربة بحوادثها ، وأنه كان يعيش فى الوظائف وشئون السياسة بجسمه لا بروحه ، وأن روحه كانت فى شغل عن ذلك كله بالتأمل فى شئون الاجتماع الإنسانى وتحصيل المعارف ، وأن ذهنه الباحث الألمعى كان لا يفتأ يختزن المعلومات ، وأن عقله الباطن كان لا ينفك يرتب الحقائق ، ويوازن بينها ، ويستخلص النتائج ، وأن كل ذلك كان يجرى فى صورة لاشعورية أو فى صورة قريبة من ذلك ، وأنه عند ما تهيأ له شىء من هدوء البال واستقرار الحياة تفاعلت تلك الملاحظات المختزنة وبدت النتائج التى انتهت إليها العمليات العقلية اللاشعورية ، فأشرقت من خلال ذلك بحوث المقدمة إشراقاً ، وتدفقت الآراء والأفكار تدفقاً فى صورة دعت إلى دهشته هو نفسه ، كما دعا مثلها إلى دهشة كثير من العباقرة والمخترعين .

وكان ابن خلدون فى معظم ما يكتبه فى مقامه المنعزل بقلعة ابن سلامة يكتب عن حفظه ومن ذاكرته وبالرجوع إلى مذكراته وإلى المراجع القليلة التى أتيح له الحصول عليها فى أثناء ذلك وإلى ما عسى أن يكون لديه من كتب فى مكتبته الخاصة إن كانت له مكتبة خاصة حينئذ .

ثم رأى أن تنقيح كتابه وتكملته يقتضيانه الرجوع إلى الكتب والمصادر الموسعة التى لم تكن متاحة له فى قلعة ابن سلامة ؛ فشخص هو وأسرته إلى تونس حيث تقدم له مكتباتها الغنية ما يحتاج إليه من مراجع . وكان سلطان تونس حينئذ أبا العباس أحمد بن أبى عبدالله محمد الذى كان سلطانه من قبل مقصوراً على قسنطينة وبجاية وتآمر ضده ابن خلدون لحساب سلطان فاس . وقد نزل ابن خلدون فى ضيافة أبى العباس بعد أن غفر له هذا السلطان ما تقدم من ذنبه معه . وظل ابن خلدون فى تونس أربع سنين أخرى عاكفاً على البحث والتدريس لطلبة العلم حتى أتم مؤلفه ونقحه وهذبه ، ورفع نسخة منه فى أوائل سنة ٧٨٤ ﻫ إلى سلطان تونس أبى العباس أحمد . وتعرف هذه النسخة بالنسخة التونسية .

٤ — رحلته إلى مصر وتوليه وظائف القضاء والتدريس فى القاهرة

وفى أواخر سنة ٧٨٤ ﻫ بدرت من أبى العباس سلطان تونس بوادر الرغبة فى الاستعانة بابن خلدون فى شئون السياسة والحرب . وكان ابن خلدون قد كره حينئذ هذه الشئون التى كانت دخيلة فى طبيعته ومطامحه ، مؤثراً التفرغ للدراسة والعلم وإشباع استعداده الأصيل ، فاعتزم مغادرة تونس ، وخطرت له فكرة الحج يتوسل بها عذراً إلى السلطان ؛ وما زال به حتى أذن له .

فترك أهله بتونس ، وأبحر إلى الإسكندرية فوصل إليها فى يوم عيد الفطر سنة ٧٨٤ ﻫ . وأقام بها شهراً يهيئ العدة للحج أو يتظاهر بذلك ، ولكن لم تتح له فى هذا العام فرصة السفر إلى مكة ، أو لعله لم يكن فى عزمه إتمام هذا السفر ، أو كان ذلك فى عزمه أولا ثم عدل عنه فيما بعد باختياره .

ثم قصد بعد ذلك إلى القاهرة . وكانت القاهرة حينئذ موئل التفكير الإسلامى فى المشرق والمغرب ، وكان لسلاطينها المماليك شهرة واسعة فى حماية العلوم والفنون فى المدارس العديدة التى أنشئوها وفى الجامع

الأزهر الذى أنشئ من قبلهم فى عهد الفاطميين .
وكان صيت ابن خلدون قد سبقه إلى القاهرة ، وكان المجتمع المصرى يعرف حينئذ الكثير عن شخصيته وسيرته وعن بحوثه الاجتماعية والتاريخية . فقد كان للوراقين (أصحاب المكتبات) فى هذا العهد نشاط كبير فى نسخ المؤلفات ونشرها فى مختلف البلاد .

ومن أجل ذلك لقى ابن خلدون من أولياء الأمور فى القاهرة ومن علمائها وخاصة أهلها أحسن استقبال وأروعه ، وهوت إليه أفئدة كثير من الناس ، والتف حوله عدد كبير من المثقفين ينهلون من علمه ويفيدون من بحوثه . وأخذ يلقى دروسه ومحاضراته فى الجامع الأزهر . وقد رأى المجتمع المصرى فى دروسه ومحاضراته من العمق والطرافة والابتكار ما لم يعهد مثله من قبل . فزاد هذا من مكانته وشهرته ، وعظمت منزلته فى نظر الظاهر برقوق سلطان مصر فى ذلك العهد . فعينه فى أوائل سنة ٧٨٦ فى منصب تدريس الفقه المالكى بمدرسة « القمحية »، وهى مدرسة من إنشاء صلاح الدين الأيوبى وقفها على المالكية يتدارسون فيها الفقه ، ووقف عليها أراضى من الفيوم تغل القمح ، فسميت بالقمحية . ثم ولاه فى السنة نفسها منصب قاضى قضاة المالكية ، وكان هذا المنصب من أرقى المناصب القضائية والعلمية فى مصر :

وكان يسود القضاء فى مصر حينئذ فساد واضطراب وميل إلى الهوى والأغراض . فلم يدخر ابن خلدون وسعاً فى إصلاح ما فسد ، وتحقيق العدالة فى أمثل وجوهها ، والعزوف عن طرائق الحيل والالتواء والمحاباة ، والإعراض عن شفاعات الأمراء والأعيان ، والجنوح إلى الصرامة فى توقيع العقوبات .

وكان مسلكه هذا سبباً فى إثارة السخط عليه من كل ناحية . وزاد من هذا السخط ثلاثة أمور أخرى . أحدها أن ابن خلدون كان مغربياً ؛ وكان منصب قاضى القضاة فى مصر من أهم مناصب الدولة ومطمح أنظار الفقهاء والعلماء المصريين ؛ فكان من الطبيعى أن يثير حقدهم عليه وحسدهم إياه فوزه دونهم — وهو الأجنبى عن بلادهم — بهذا المنصب الجليل . وثانيها مظاهر عبقريته وما وصل إليه من منزلة منقطعة النظير فى مختلف فروع العلوم والآداب ، وما زود به من سمو فى أسلوبه ، وبراعة فى الإبانة عن أفكاره (فقد كان ابن خلدون محدثاً بارعاً رائع المحاضرة يخلب ألباب سامعيه بجمال منطقه وبلاغة عباراته) ، وشعور معاصريه من علماء مصر بقصورهم عن بلوغ منزلته ، وعجزهم البين عن اللحاق به . وثالثها اعتزازه بنفسه وكفايته ، وما كان يؤدى إليه هذا الاعتزاز أحياناً من سلوك يبدو فى ظاهره أنه من قبيل الزهو والتكبر على الناس .

لهذه الأسباب كلها مجتمعة اشتد السعى بالنميمة فى حقه ، وتلفيق التهم له ، والتقول عليه ، والادعاء بأنه يجهل الإجراءات القضائية . وأصابته فى ذلك الحين نكبة كبيرة هى هلاك زوجه وأولاده وأمواله . فقد كان منذ مقدمه إلى مصر ينتظر لحاق أسرته به . ولكن سلطان تونس حجزها عن السفر ، ليرغمه بذلك على العودة إلى تونس . فتوسل إلى السلطان الظاهر برقوق أن يشفع له لدى سلطان تونس فى تخلية سبيل أسرته ، ففعل وأطلق سراحها ، فركبت البحر إلى مصر . ولكن لم تكد السفينة تصل إلى مرسى الإسكندرية حتى أصابها قاصف من الريح فغرقت ، وهلك جميع أفراد أسرته وما كان معهم من مال وكتب ومتاع . فاشتد ألمه لهذا الحادث حتى زهد فى منصب القضاء وضعفت مقاومته لخصومه الساعين به لدى السلطان ، فانتهى الأمر بإعفائه من منصبه سنة ٧٨٧ هـ أى بعد عام واحد من ولايته له .

وظلت الحرب سجالا بين ابن خلدون وخصومه حول منصب قاضى قضاة المالكية ، وظل هذا المنصب

دولة بينهم ، يتولاه ابن خلدون إذا انتصر عليهم ويتولاه أحدهم إذا انتصروا عليه ، حتى لقد تقلب عليه ثمانية فى نحو أربع سنين (٨٠٤ — ٨٠٨ ﻫ) . وتولاه ابن خلدون بعد المرة الأولى ست مرات أخرى امتدت سادستها من شعبان سنة ٨٠٨ ﻫ إلى يوم وفاته فى السادس والعشرين من رمضان من السنة نفسها .

ويظهر أن ابن خلدون قد عانى فى بعض فترات من مرحلة مقامه فى مصر كثيراً من الكوارث من جراء إسفاف خصومه ووشاياتهم وحملاتهم عليه ومؤامراتهم ضده ، حتى لقد طلب بعد عزله من القضاء للمرة الثانية أمام الحاجب الكبير ، ووجه إليه كثير من التهم ، وناله كثير من الإهانات .

وقد تولى فى بعض فترات تخليه عن منصب القضاء ثلاث وظائف للتدريس . فعين فى سنة ٧٨٨ ﻫ أستاذاً للفقه المالكى فى مدرسة عالية أنشأها فى هذه السنة نفسها السلطان الظاهر برقوق وسماها المدرسة الظاهرية البرقوقية ، وظل ابن خلدون فى وظيفته هذه بضعة أشهر . وفى المحرم سنة ٧٩١ ﻫ عين أستاذاً للحديث فى مدرسة عالية هى مدرسة صرغتمش فدرس فيها موطأ الإمام مالك وبدأ أول درس له بمقدمة قيمة فى الترجمة لصاحب هذا الكتاب ومشتملات كتابه وأسانيده وطرق روايته . وقد أثبت ابن خلدون هذه المحاضرة كاملة فى كتابه « التعريف » ، فاستغرقت نحو خمس عشرة صفحة (التعريف ٢٩٤ — ٣١٠) . وبعد نحو ثلاثة أشهر من تعيينه فى كرسى الحديث بمدرسة صرغتمش أضاف السلطان إلى وظيفته هذه وظيفة أخرى فعينه فى السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٧٩١ ﻫ شيخاً لخانقاه بيبرس ، وهى تكية لبعض فرق الصوفية أنشأها الملك المظفر ركن الدين بيبرس ووقف عليها أوقافاً كثيرة كانت من أوفر الأوقاف ريعاً ، « فكان رزق النظر فيها والمشيخة واسعاً لمن يتولاه » (التعريف ٣١٣) ، فاتسعت بذلك موارد ابن خلدون . ولكنه تخلى عن هاتين الوظيفتين فى أواخر السنة نفسها التى تولاهما فيها وهى سنة ٧٩١ﻫ .

٥ — رحلاته إلى الحجاز وبيت المقدس ودمشق فى أثناء مقامه بمصر

ولم يغادر ابن خلدون مصر فى أثناء المدة الطويلة التى قضاها فيها ، والتى استغرقت زهاء أربع وعشرين سنة هجرية (٧٨٤ — ٨٠٨ ﻫ) إلا ثلاث مرات :

إحداها فى أواخر سنة ٧٨٩ ﻫ ، وكانت لأداء فريضة الحج . وقد عاد من رحلته هذه فى أوائل سنة ٧٩٠ ﻫ . ووصف هذه الرحلة وما تلقاه فى أثنائها من رسائل من أصدقائه فى الأندلس فى كتابه التعريف فى نحو عشرين صفحة (التعريف ٢٦١ — ٢٧٨) .

وثانيتها فى أوائل سنة ٨٠٢ ﻫ ، وكانت لزيارة بيت المقدس ، وقد عاد من رحلته هذه فى أواخر رمضان سنة ٨٠٢ ﻫ . ووصف فى كتابه التعريف رحلته هذه وما شاهده فى بيت المقدس والخليل وبيت لحم من معالم وآثار (التعريف ٣٥٠) .

وثالثتها فى أوائل سنة ٨٠٣ ﻫ وكانت فى معية السلطان الناصر فرج (الذى تولى سلطنة مصر بعد وفاة أبيه الظاهر برقوق) حينما خرج للقاء جيوش تيمور لنك فى الشام . وبعد عودة الناصر فرج إلى مصر وتركه دمشق لمصيرها تحت رحمة الفاتح تيمور لنك ، أتيح لابن خلدون أن يتصل بتيمورلنك ويصبح من خاصة جلسائه . ويظهر أنه قد عاودته رغباته السطحية فى الوظائف السياسية ، وأنه كان يرجو أن يحظى بمنصب كبير فى دولة تيمور لنك . غير أنه لم يوفق إلى تحقيق ما كان يأمله . فلم تمض أسابيع قلائل حتى سئم البقاء فى دمشق ، واستأذن تيمور لنك فى العودة إلى مصر ، فأذن له ، فوصل إليها فى شعبان من السنة نفسها

(سنة ۸۰۳ ﻫ) . وقد وقف ابن خلدون فى كتابه « التعريف » على رحلته إلى الشام وقصته مع تيمور لنك نحو عشرين صفحة وصف فيها هذه الرحلة وصفاً طريفاً رائعاً (التعريف ٣٦٦ – ٣٨٣) .

٦ – تنقيحه لمؤلفاته فى أثناء مقامه بمصر :

ولم ينقطع ابن خلدون فى أثناء إقامته الطويلة بمصر عن مراجعة مؤلفه التاريخى « كتاب العبر » ومراجعة « مقدمته » . فأضاف إلى تاريخه عدة فصول ، ووسع بوجه خاص أبحاثه المتعلقة بتاريخ الدول الإسلامية فى المشرق وتاريخ الدول القديمة والدول النصرانية والأعجمية ، ووصل فى رواية حوادث المشرق والأندلس والمغرب إلى أواخر القرن الثامن الهجرى ، أى إلى ما قبل وفاته بأمد قصير . وأضاف كذلك بعض فصول وبعض فقرات إلى « المقدمة » نفسها ، وحرر بعض فصولها تحريراً جديداً . ونقح كتابه « التعريف» الذى سماه أولا « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » وذيل به كتابه « العبر » ، فأدخل عليه كثيراً من التعديلات والتنقيحات والزيادات فى المراحل التى عرض لتاريخها فى وضعه الأول ، وأضاف إليه تاريخ المراحل الأخيرة من حياته ، ووصل فى رواية حوادثه إلى نهاية سنة ۸۰۷ ﻫ ، أى إلى ما قبل وفاته ببضعة أشهر . وقدم نسخة من المؤلف كله (« المقدمة » و « العبر » و « التعريف ») إلى الملك الظاهر برقوق ، ونسخة أخرى إلى السلطان أبى فارس عبد العزيز بن أبى الحسن سلطان المغرب الأقصى حينئذ (وهو غير السلطان أبى فارس عبد العزيز بن أبى العباس سلطان المغرب الأقصى الذى كان قد استولى على تلمسان واتصل به ابن خلدون هناك وعمل لحسابه فى بعض مغامرات سياسية حوالى سنة ٧٧٤ كما قدمنا) . وقد عرفت هذه النسخة الأخيرة باسم « النسخة الفارسية » نسبة إلى السلطان أبى فارس عبد العزيز بن أبى الحسن ، وكان تقديمها له حوالى سنة ٧٩٩ ﻫ .

ولم ينفك ابن خلدون بعد إهداء كتابه لبرقوق وأبى فارس يراجع النسخة التى بين يديه من « المقدمة » على الأخص ، ويدخل عليها تنقيحات وتعديلات وزيادات . وقد أدخلت هذه الزيادات فى متن المقدمة فيما بعد على يده أو على يد النساخ ، وثبتت فى بعض النسخ المخطوطة فى مكتبات أوروبا ومصر . ومنها بعض النسخ التى اعتمد عليها المستشرق كاترمير فى طبعة باريس للمقدمة ، وبعض النسخ التى اعتمدنا نحن عليها فى إخراجنا للمقدمة فى طبعة « لجنة البيان العربى » .

٧ – وفاته وقبره

توفى ابن خلدون فجأة فى السادس والعشرين من رمضان سنة ۸۰۸ ﻫ (١٦ مارس سنة ١٤٠٦ م) ، عن ستة وسبعين عاماً ، وكان حينئذ فى وظيفة قاضى قضاة المالكية فى مصر .

وقد دفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر فى اتجاه « الريدانية » (العباسية الآن) . ولا نعرف الآن على وجه اليقين أين يقع هذا القبر .

القسم الثانى

مقدمة ابن خلدون

سنمهد لهذا القسم بفقرتين : إحداهما فى موضوع علم الاجتماع وأغراضه ؛ والأخرى فى أنواع البحوث الاجتماعية التى ظهرت قبل ابن خلدون وما بينها وبين علم الاجتماع من خلاف .

ثم نقف بقية فقرات هذا القسم على دراسة المقدمة نفسها .

١ — موضوع علم الاجتماع وأغراضه

يدرس « علم الاجتماع » La Sociologie ما نسميه بالظاهرات الاجتماعيــة Phénomènes sociaux والظاهرات الإجتماعية فى تعريفها المجمل عبارة عن القواعد والاتجاهات العامة التى تتخذ فى مجتمع ما أساساً لتنظيم الحياة الجمعية وتنسيق العلاقات التى تربط أفراد هذا المجتمع بعضهم ببعض وتربطهم بغيرهم .

والظاهرات الاجتماعية أنواع مختلفات : فمنها ما يتعلق بشئون السياسة ونظم الحكم ؛ ومنها ما يتعلق بشئون الاقتصاد ونظم إنتاج الثروة وتداولها وتوزيعها واستهلاكها ؛ ومنها ما يتعلق بشئون الأسرة ونظم الزواج والطلاق والقرابة والميراث وما إلى ذلك ؛ ومنها ما يتعلق بشئون القضاء ونظم المسئولية والجزاء ؛ ومنها ما يتعلق بشئون الدين وعقائده وشرائعه ؛ ومنها ما يتعلق بشئون الأخلاق وقواعد التميز بين الفضيلة والرذيلة والخير والشر ؛ ومنها ما يتعلق بشئون التربية ونظم الإعداد للحياة ؛ ومنها ما يتعلق بشئون اللغة والتفاهم ونقل أفكار الناس بعضهم إلى بعض ؛ ومنها ما يتعلق بشئون الفن والجمال ؛ ومنها ما يتعلق بشئون التكتل الاجتماعى نفسه أى تجمع الأفراد بعضهم إلى بعض فى محلة أو قرية أو مدينة .

هذا هو موضوع علم الاجتماع . وأما أغراضه فمن الممكن رجعها إلى غرض واحد وهو الكشف عن القوانين التى تخضع لها هذه الظاهرات . وذلك أن الظاهرات الاجتماعية لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ولا حسب ما يريده لها الأفراد ، وإنما تسير حسب قوانين لا تقل فى ثباتها واطرادها عن القوانين التى تخضع لها ظواهر الفلك والطبيعة . والغرض النهائى الذى يرمى إليه علم الاجتماع من وراء دراسته للظاهرات الاجتماعية هو الوصول إلى معرفة هذه القوانين .

٢ — أنواع البحوث الاجتماعية التى ظهرت قبل مقـدمة ابن خلدون ، وما بينها وبين علم الاجتماع من خلاف

ترجع البحوث الاجتماعية التى ظهرت قبل مقدمة ابن خلدون إلى ثلاث طوائف :

(الطائفة الأولى) بحوث تاريخية خالصة يقتصر أصحابها على وصف الظواهر الاجتماعية وبيان ما كانت عليه وما هى عليه ، بدون أن يحاولوا استخلاص شىء من هذا الوصف فيما يتعلق بطبيعة هذه الظواهر وقوانينها . وقد سار على هذه الطريقة جميع الباحثين فى التاريخ العام من قبل ابن خلدون . فنراهم فى ثنايا علاجهم لمسائل التاريخ العام يعرجون من حين لآخر وبحسب المناسبات على نظم السياسة والقضاء والاقتصاد والتربية وما إلى ذلك من ظواهر الاجتماع ، فيصفون ما كانت عليه هذه النظم فى الشعب الذى يدرسون تاريخه أو فى الشعوب التى يدرسون تاريخها . وسار على هذه الطريقة كذلك جميع الذين درسوا تاريخ النظم

الاجتماعية فى صورة مستقلة عن حوادث التاريخ العام ، فجعلوا موضوع دراستهم تاريخ مجموعة معينة من هذه النظم . فقد اقتصر هؤلاء كذلك على وصف هذه النظم وبيان ما كانت عليه وما هى عليه كما فعل ابن حزم فى دراسته للملل والنحل وكما فعل الفقهاء والمؤرخون فى دراستهم لتاريخ التشريع وتاريخ القضاء وتاريخ التربية وما إلى ذلك .

وهذه الطائفة من الدراسات ليست من علم الاجتماع فى شىء ؛ لأن علم الاجتماع لا يقف عند وصف الظاهرات الاجتماعية ، وليس غرضه مجرد هذا الوصف ؛ وإنما يرمى إلى تحليلها للكشف عن طبيعتها وما تخضع له من قوانين . وهو إذا عرض للوصف فإنما يعرض له ليكون مجرد تمهيد لغرضه الأصيل ، وهو ربط الأسباب بالمسببات ، والمقدمات بالنتائج ، واستخلاص القوانين العامة التى تحكم هذه الظاهرات .

و (الطائفة الثانية) دراسات وعظية إرشادية تدعو إلى المبادئ التى تقررها نظم المجتمع ومعتقداته وتقاليده ويرتضيها عرفه الخلقى . وذلك ببيان محاسنها ، وترغيب الناس فيها ، وتثبيتها فى نفوسهم ، وحثهم على التمسك بها ، وتحذيرهم من تعدى حدودها ، وبيان ما ينبغى أن يتخذوه فى تطبيقها . وهذه هى الطريقة التى سلكها بعض علماء الدين والخطابة والأخلاق وبعض الباحثين فى شئون السياسة والملك كابن مسكويه فى كتابه « تهذيب الأخلاق » والغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » والماوردى فى كتابه « الأحكام السلطانية » والطرطوشى فى « سراج الملوك » .

وهذه الطائفة من الدراسات ليست كذلك من علم الاجتماع فى شىء ؛ لأن علم الاجتماع ، كما رأينا ، لا شأن له بالوعظ والإرشاد ، ولا بالدعوة إلى المبادئ ؛ وإنما يدرس مسائل الاجتماع كما يدرس عالم الطبيعة مسائل الطبيعة أى لمجرد الوقوف على حقيقتها وما يحكمها من قوانين .

و (الطائفة الثالثة) دراسات يوجه أصحابها كل عنايتهم إلى ما ينبغى أن تكون عليه الظواهر الاجتماعية بحسب المبادئ التى يرتضيها كل منهم . فهى دراسات إصلاحية ، ترمى إلى تغيير النظم وإصلاح الحياة الاجتماعية على الوجه الذى يتفق مع نظريات أصحابها فى العدالة والسعادة والفضيلة وما إلى ذلك . وذلك كما فعل أفلاطون فى كتابيه « الجمهورية » و « القوانين » وأرسطو فى كتابيه « الأخلاق » و « السياسة » والفارابى فى كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » . فقد عمل كل واحد من هؤلاء فى بحثه على بيان ما ينبغى أن يكون عليه المجتمع فى مختلف ظواهره الاجتماعية أو فى بعضها حتى يكون مجتمعاً فاضلا فى نظره بحسب ما يذهب إليه من آراء فلسفية عن الأخلاق ومقومات الحكم ومختلف شئون الاجتماع .

وهذه الطائفة من الدراسات ليست كذلك من علم الاجتماع فى شىء ؛ لأن علم الاجتماع ، كما رأينا ، لا شأن له بما ينبغى أن يكون ؛ وإنما يدرس ما هو كائن للكشف عن طبيعته وقوانينه .

* * *

ومن هذا يظهر أنه لا يوجد من بين أنواع الدراسات الاجتماعية السابقة لمقدمة ابن خلدون نوع يتفق فى أغراضه ومناهجه مع مانسميه الآن علم الاجتماع . ومعنى هذا أنه قبل ظهور مقدمة ابن خلدون لم يكن علم الاجتماع قد أنشئ بعد ، وأنه لم يفكر أحد من قبل ابن خلدون فى إنشائه ولا فى وضع أساس له .

ويرجع السبب فى هذا إلى أن دراسة الظواهر الاجتماعية على الطريقة التى يسير عليها علم الاجتماع لا تتاح إلا لمن ثبت لديه أن هذه الظواهر لا تسير حسب الأهواء والمصادفات ولا حسب ما يريده لها الأفراد ، وإنما تسير فى نشأتها وتطورها ومختلف أحوالها حسب قوانين ثابتة مطردة كالقوانين الخاضع لها القمر فى تزايده وتناقصه والنهار والليل فى اختلافهما باختلاف

الفصول . وهذه الحقيقة لم يصل إليها تفكير أحد من قبل ابن خلدون ؛ بل إن نقيضها كان هو المسيطر على أفكارهم جميعاً . فقد كان المعتقد أن ظواهر الاجتماع خارجة عن نطاق القوانين ، وخاضعة لرغبات القادة وتوجيهات الزعماء والمشرعين ودعاة الإصلاح . ولذلك لم يكن من الممكن حينئذ أن تدرس الظواهر الاجتماعية على الوجه الذى تدرس به فيما نسميه الآن « علم الاجتماع » .

٣ ـ إنشاء ابن خلدون فى مقدمته لعلم جديد هو ما نسمية الآن « علم الاجتماع »

إلى هذا الحد وقف تفكير السابقين لابن خلدون فى فهم الظواهر الاجتماعية . أما ابن خلدون فقد هدته مشاهداته وتأملاته العميقة لشئون الاجتماع الإنسانى إلى أن الظواهر الاجتماعية لا تشذ عن بقية ظواهر الكون وأنها محكومة فى مختلف مناحيها بقوانين طبيعية تشبه القوانين التى تحكم ظواهر الفلك والطبيعة والحيوان والنبات .

ومن ثم رأى أنه من الواجب أن تدرس هـــذه الظواهر دراســـة « وضعية » Positive كما تدرس ظواهر العلوم الأخرى ، أى للوقوف على طبيعتها وما يحكمها من قوانين . وعلى هذا البحث وقف دراسته فى « المقدمة » .

فمن بحوث ابن خلدون فى المقدمة يتألف إذن علم جديد لم يعرض له أحد من قبل . وقد سماه ابن خلدون « علم العمران البشرى » أو « الاجتماع الإنسانى » ، وهو العلم نفسه الذى نسميه الآن « السوسيولوجيا » أى « علم الاجتماع » ؛ لأن قوام هذا العلم ، كما رأينا ، هو دراسة الظواهر الاجتماعية للكشف عن القوانين التى تخضع لها .

وفى هذا يقول ابن خلدون نفسه :

« وكأن هذا علم مستقل بنفسه : فإنه ذو موضوع وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى ؛ وذو مسائل وهى بيان ما يلحقه من العوارض الذاتية . وهذا شأن كل علم من العلوم » (المقدمة ، البيان ٢٦٥) .

ويقصد ابن خلدون من كلمة « العوارض الذاتية » أو « ما يلحق المجتمع من العوارض لذاته » ، وهى العبارة التى استخدمها هنا وفى مواطن أخرى كثيرة من مقدمته ما نقصده نحن من كلمة القوانين . ويتضح قصده هذا من منهجه فى دراسته ومما كتبه هو نفسه فى الباب السادس من مقدمته فى أثناء حديثه عن علم الهندسة إذ يقول :

« هذا العلم هو النظر فى المقادير ، إما المتصلة كالخطوط والسطح والجسم، وإما المنفصلة كالأعداد ، وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية : مثل أن كل مثلث فزواياه مثل قائمتين ؛ ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان فى وجه ولو خرجاً إلى غير نهاية ؛ ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المتقابلتان منهما متساويتان » (المقدمة ، البيان ١٠٩٧) . فهذا يدل على أنه يقصد من كلمة « العوارض الذاتية » ما نقصده نحن من كلمة « القوانين » .

ويقرر ابن خلدون نفسه أن دراسة ظواهر الاجتماع على هذا الوجه لم يسبقه إليها أحد فيما يعلم . وفى هذا يقول :

« واعلم أن الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة ، غريب النزعة ، غزير الفائدة ، أعثر عليه البحث ، وأدى إليه الغوص » . وبعد أن بين الفرق بينه وبين البحوث السابقة له على النحو الذى أوضحناه فيما سبق ، قال : « وكأنه علم مستنبط النشأة . ولعمرى لم أقف على الكلام فى منحاه لأحد من الخليقة . وما أدرى ألغفلتهم عن ذلك ؟ وليس الظن بهم » . ثم يعقب على ذلك بعبارة يبدو فيها تحفظ العلماء وتواضعهم فيقول

« ولعلهم كتبوا فى هذا الغرض واستوفوه ولم يصل إلينا . فالعلوم كثيرة ، والحكماء فى أمم النوع الإنسانى كثيرون . وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل » (المقدمة ، البيان ٢٦٦) .

والحقيقة أننا لم نعثر إلى الآن على بحث سابق لبحوث ابن خلدون فى المقدمة قد تناول ظواهر الاجتماع فى مجموعها ، وعلى أنها موضوع شعبة مستقلة ، ودرسها كما تدرس العلوم الرياضية والطبيعية ظواهرها ، أى للكشف عن طبيعتها وما تخضع له من قوانين .

٤ — محتويات مقدمة ابن خلدون

تطلق الآن مقدمة ابن خلدون على المجلد الأول من سبعة المجلدات التى يتألف منها « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » (حسب طبعة بولاق التى تم إخراجها سنة ١٨٦٨ م) . ويشتمل هذا المجلد على ما يلى :

(أولا) خطبة الكتاب أو ديباجته أو افتتاحيته . وتقع فى نحو سبع صفحات (تقع هى وما عليها من تعليقات فى طبعتنا بلجنة البيان فى ١٢ صفحة ، من ص ٢٠٧ إلى ص ٢١٨) . وقد عرض فيها المؤلف ، بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ، لبحوث المؤرخين من قبله ، وذكر طوائفهم ، ووجوه النقص فى بحوثهم ، وأشار إلى الأسباب التى دعته إلى تأليف الكتاب كله « كتاب العبر » ، وبين طريقته وأقسامه . وختم هذه الافتتاحية بإهداء نسخة من الكتاب إلى سلطان تونس (فى النسخة التونسية) وسلطان فاس (فى النسخة الفارسية) .

(ثانياً) « المقدمة فى فضل التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها » . وتقع هذه المقدمة فى نحو ثلاثين صفحة (تقع هى وما عليها من تعليقات فى اثنتين وأربعين صفحة فى طبعتنا بلجنة البيان ، من ص ٢١٩ إلى ص ٢٦٠) . وعنوانها نفسه موضح لما تشتمل عليه .

(ثالثاً) « الكتاب الأول[1] فى طبيعة العمران فى الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب » . ويقع فى نحو ستمائة وخمسين صفحة (يقع هو وما عليه من تعليقات فى نحو ألف ومائة صفحة فى طبعتنا بلجنة البيان ، من ص٢٦١ من الجزء الأول إلى ص ١٣٦٧ آخر الجزء الرابع) . وهذا هو القسم الرئيسى مما نسميه الآن مقدمة ابن خلدون . ويشتمل على ما يأتى :

١ — تمهيد يقع فى نحو سبع صفحات (يقع هو وما عليه من تعليقات فى نحو إحدى عشرة صفحة فى طبعتنا بلجنة البيان ، من ص ٢٦١ إلى ص ٢٧١) . تكلم فيه كذلك عن التاريخ وموضوعه وأسباب الخطأ فى رواية حوادثه والأسباب التى دعته إلى البحث الذى يتضمنه هذا الكتاب الأول من مؤلفه ، وبين البحوث الستة الرئيسية التى يشتمل عليها هذا الكتاب وموضوع كل بحث .

٢ — ٧ — ستة بحوث رئيسية (سماها ابن خلدون فصولا ، وسميناها نحن أبواباً حتى لا تلتبس بالفصول الفرعية التى تنطوى تحتها) ، وهى :

(الباب الأول (« فى العمران البشرى على الجملة » ويشتمل على ستة فصول (سماها ابن خلدون مقدمات) ويقع فى نحو تسعين صفحة (يقع هو وما عليه من تعليقات فى ١٢٠ صفحة فى طبعتنا بلجنة البيان) .

---

(١) هو « كتاب أول » بالنسبة إلى الكتابين التاليين الثانى والثالث اللذين يؤلفان القسم الباقى من كتاب « العبر » ويعرضان لتاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من الأمم .

(الباب الثانى) «فى العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل». ويشتمل على تسعة وعشرين فصلا فرعياً، ويقع فى نحو أربعين صفحة (يقع هو وما عليه من تعليقات فى ٥٤ صفحة فى طبعتنا بلجنة البيان).

(الباب الثالث) «فى الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية». ويشتمل على أربعة وثلاثين فصلا فرعياً بحسب طبعتنا بلجنة البيان (تزيد طبعتنا عن الطبعات المتداولة بفصل فرعى يشغل نحو أربع صفحات وهو مثبت فى بعض النسخ الخطية للمقدمة). ويقع فى نحو مائتى صفحة (يقع هو وما عليه من تعليقات فى ٣٢٠ صفحة فى طبعتنا بلجنة البيان).

(الباب الرابع) «فى البلدان والأمصار وسائر العمران». ويشتمل على اثنين وعشرين فصلا فرعياً، ويقع فى نحو أربعين صفحة (يقع هو وما عليه من تعليقات فى ٦٣ صفحة فى طبعتنا بلجنة البيان).

(الباب الخامس) «فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال» ويشتمل على ثلاثة وثلاثين فصلا فرعياً، يقع فى نحو خمسين صفحة (يقع هو وما عليه من تعليقات فى نحو ثمانين صفحة فى طبعتنا بلجنة اليان).

(الباب السادس) «فى العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال». ويشتمل على واحد وستين فصلا فرعياً بحسب طبعتنا فى لجنة البيان (تزيد طبعتنا عن الطبعات المتداولة بعشرة فصول فرعية، وهى مثبتة فى بعض النسخ الخطية للمقدمة). ويقع فى نحو مائتين وعشرين صفحة (يقع هو وما عليه من تعليقات فى نحو ٤٠٠ صفحة فى طبعتنا بلجنة البيان).

٥ – شمول دراسات ابن خلدون فى «المقدمة» لجميع ظواهر الاجتماع الإنسانى

هذا ويبدو مما كتبه ابن خلدون فى المقدمة أنه كانت لديه فكرة واضحة عن اتساع نطاق الظواهر الاجتماعية وشمولها لجميع الأنواع التى أشرنا إليها فى الفقرة الأولى من هذا القسم، وأنه لم يغادر أية طائفة من طوائفها إلا عرض لها بالدراسة.

فعرض فى معظم البابين الأول والرابع من المقدمة للظواهر المتصلة بطريقة التجمع الإنسانى، أى للنظم التى يسير عليها التكتل الإنسانى نفسه، مبيناً فى الباب الأول أثر البيئة الجغرافية فى هذه الظواهر وفى غيرها من شئون الاجتماع. وهذه هى الشعبة التى سماها العلامة دوركايم «المورفولوجيا الاجتماعية La morphologie sociale» أو «علم البنية الاجتماعية»، وظن هو وأعضاء مدرسته أنهم أول من عنى بدراسة مسائلها، وأول من فطن إلى خواصها الاجتماعية، وأول من أدخلها فى مسائل علم الاجتماع؛ ولم يدروا أنه قد سبقهم إلى ذلك ابن خلدون بأكثر من خمسة قرون، وأنه قد وقف على هذه الشعبة زهاء بابين كاملين من مقدمته.

وعرض ابن خلدون فى الفصول العشرة الأولى من الباب الثانى للظواهر المتصلة بالبدو والحضر وأصول المدنيات.

وعرض فى الفصول التسعة عشر الأخيرة من الباب الثانى وفى جميع فصول الباب الثالث لنظم الحكم وشئون السياسة.

وعرض للظواهر الاقتصادية فى جميع فصول الباب الخامس وفى سبعة فصول من الباب الثالث (وهى الفصول التى أعطاها العناوين الآتية: فصل فى الجباية وسبب قلتها وكثرتها؛ فصل فى ضرب المكوس أواخر الدولة؛ فصل فى أن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا؛ فصل فى أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون فى وسط الدولة؛ فصل فى أن نقص العطاء من السلطان نقص فى الجباية؛ فصل فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران؛ فصل فى وفور العمران

آخر الدولة . وتتصل هذه الفصول كذلك بشئون السياسة والحكم التي يتألف منها الموضوع الأساسي للباب الثالث) وفي ستة فصول من الباب الرابع (وهي الفصول التي أعطاها هذه العناوين : فصل في أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفه لأهلها ونفاق الأسواق؛ فصل في أسعار المدن ؛ فصل في اختلاف أحوال الأقطار بالرفه والفقر ؛ فصل في تأثل العقار والضياع ؛ فصل في حاجات المتمولين من أهل الأمصار إلى الجاه والمدافعة ؛ فصل في اختصاص بعض الأمصار ببعض الصنائع . ولهذه الفصول كذلك صلة بشئون المورفولوجيا الاجتماعية التي يتألف منها الموضوع الأصلي للباب الرابع) .

وعرض في الباب السادس للظواهر التربوية والعلوم وأصنافها والتعليم وطرقه . وفي أثناء دراسته لظواهر هذا الباب تناول كثيراً من الظواهر الأخرى كالظواهر القضائية والخلقية والجمالية واللغوية والدينية[1].

٦ - منهج ابن خلدون في البحث وطريقته في عرض الحقائق

يعتمد ابن خلدون في بحوثه على ملاحظة ظواهر الاجتماع في الشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها ، وتعقب هذه الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها في العصور السابقة لعصره ، وتعقب أشباهها ونظائرها في تاريخ شعوب أخرى لم يتح له الاحتكاك بها ولا الحياة بين أهلها ، والموازنة بين هذه الأوضاع جميعاً ، والتأمل في مختلف مناحيها ، للوقوف على طبائع الظواهر وعناصرها الذاتية وصفاتها العرضية وما تؤديه من وظائف في حياة الأفراد والجماعات ، والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض والتي تربطها بما عداها من الظواهر الكونية ، وعوامل تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور ، ثم الانتقال من هذه الأمور جميعاً ، وفي ضوء هذه الأمور جميعاً ، إلى استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر في مختلف شئونها من قوانين .

فهو في بحثه للظواهر الاجتماعية يجتاز مرحلتين : تتمثل أولاهما في ملاحظات حسية وتاريخية لظواهر الاجتماع ، أو بعبارة أخرى تتمثل في جمع المواد الأولية اللازمة لموضوع بحثه من المشاهدات ومن بطون التاريخ ؛ وتتمثل ثانيتهما في عمليات عقلية يجريها على هذه المواد الأولية ويصل بفضلها إلى الغرض الذي قصد إليه من هذا العلم ، وهو الكشف عما يحكم الظواهر الاجتماعية من قوانين .

هذا هو جوهر منهجه في البحث . وهو المنهج الذي لا يزال إلى الوقت الحاضر عمدة الباحثين في علم الاجتماع .

* * *

وأما طريقة عرضه في المقدمة لما انتهت إليه بحوثه فتشبه من وجوه كثيرة الطريقة التي يسير عليها المحدثون من علماء الهندسة في عرض نظرياتهم . فهو يعنون كل فقرة من بحثه بقانون أو فكرة من القوانين أو الأفكار التي انتهى إليها ، كما يفعل علماء الهندسة المحدثون إذ يجعلون نص النظرية نفسها عنواناً للفصل . ثم يأخذ في بيان الحقائق التي استخلص منها هذا القانون أو هذه الفكرة ، أي يأخذ في البرهنة عليها ، كما يفعل علماء الهندسة كذلك في البرهنة على نظرياتهم . ولا يقتصر في هذه البرهنة على ما شاهده أو أطلع عليه في بطون التاريخ من شواهد اجتماعية تدل على صحة القانون الذي

(١) عرض كذلك للظواهر الدينية وما يتصل بها في الفصل السادس من الباب الأول الذي تكلم فيه عن الوحي والرؤيا وأصناف المدركين للغيب من البشر وحقيقة النبوة . . الخ . وعرض كذلك للظواهر اللغوية في الفصل الثاني والعشرين من الباب الرابع الذي تكلم فيه على لغات أهل الأمصار .

هو بصدده ، بل يلجأ كذلك أحياناً إلى البرهنة المنطقية الخالصة إن كان فى الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الإنسان عن طريق الدليل العقلى ، وإلى الاستدلال بحقائق العلوم الطبيعية وعلم النفس إن كان فى الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الإنسان عن طريق هذه الحقائق .

وإليك مثالا من ذلك الفصل التى جعل عنوانه : « فصل فى أن الأمة إذا غلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع إليها الفناء » (المقدمة ، البيان ٤٥١ — ٤٥٣) .

فقد وضع فى رأس الفصل فكرة أو قانوناً من الأفكار أو القوانين الاجتماعية التى انتهى إليها بحثه . وملخص هذه الفكرة أو هذا القانون أن خضوع أمة لأخرى لا يؤثر فى معنوياتها وحريتها واستقلالها فحسب بل يؤدى كذلك إلى فنائها فناء مادياً ، فيتناقص عدد أفرادها ويتناقص نسلها بالتدريج حتى تنقرض أو تشرف على الانقراض . ثم أخذ فى البرهنة على هذه الفكرة أو هذا القانون .

فبدأ بالبراهين المستمدة من حقائق علم النفس وعلم الحياة (البيولوجيا) وعلم الحيوان ومن مقولات العقل والأقيسة المنطقية فقال :

« والسبب فى ذلك ، والله أعلم ، ما يحصل فى النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم ؛ فيقصر الأمل ويضعف التناسل . والاعتمار إنما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنها من نشاط فى القوى الحيوانية . فإذا ذهب الأمل بالتكاسل ، وذهب ما يدعو إليه من الأحوال ، وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم ، تناقص عمرانهم ، وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم ، بما خضد الغلب من شوكتهم ، فيصبحون مغلبين لكل متغلب ، طعمة لكل آكل ؛ وسواء أكانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا » .

« وفيه ، والله أعلم ، سر آخر ، وهو أن الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذى خلق له (يشير بذلك إلى قوله تعالى بشأن آدم وذريته : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ») . والرئيس إذا غلب على رياسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه ورى كبده . وهذا موجود فى أخلاق الأناسى . ولقد يقال مثله فى الحيوانات المفترسة ، وأنها لا تسافد إذا كانت فى ملكة الآدميين . فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره فى تناقص واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء . والبقاء لله وحده » .

ثم ختم البحث بأدلة مستمدة مما شاهده وأطلع عليه فى بطون التاريخ من ظواهر اجتماعية فقال :

« واعتبر ذلك فى أمة الفرس . كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ، ولما فنيت حاميتهم فى أيام العرب بقى منهم كثير وأكثر من الكثير . يقال إن سعداً (يقصد سعد بن أبى وقاص قائد جيش المسلمين فى حربهم ضد فارس) أحصى من وراء المدائن (عاصمة فارس حينئذ) فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً ، منهم سبعة وثلاثون ألفاً رب بيت . ولما تحصلوا فى ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلا ، ودثروا كأن لم يكونوا . ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم ؛ فملكة الإسلام فى العدل ماعلمت ؛ وإنما هى طبيعة للإنسان إذا غلب على أمره ، وصار آلة لغيره » .

* * *

وقد يرى ابن خلدون أن بحثاً ما يحتاج إلى دراسات تمهيدية ، فيقف بعض فصول أو فقرات على هـــذه الدراسات قبل أن يتناول البحث أو فى أثناء علاجه له ؛ كما فعل فى الباب الأول إذ تكلم بتفصيل على الحقائق الجغرافية تمهيداً لكلامه على أثر البيئة الجغرافية فى الحياة الفردية والاجتماعية ، وكما فعل فى الباب السادس إذ

تحدث عن مختلف العلوم وموضوعاتها وأغراضها وما ألف فيها تمهيداً للكلام على نظم التربية وشئون التعلم والتعليم .

ولا يظهر ابتكار ابن خلدون ولا تبدو أصالته ولا تتحقق أغراضه من دراساته إلا فى البحوث الأصيلة من مقدمته . أما بحوثها الاستطرادية أو التمهيدية فيقتصر فيها عمل ابن خلدون على مجرد نقل الحقائق من الكتب ومن معلوماته وجمعها وتلخيصها وتسجيل الآراء وترجيح بعضها على بعض . . . وما إلى ذلك .

٧ ــ أثر مقدمة ابن خلدون فى أسلوب الكتابة العربية

سلك ابن خلدون فى كتابة الرسائل الخاصة والحكومية منذ أن تولى وظيفة كتابة السر والإنشاء لأبى سالم بن أبى الحسن سلطان المغرب الأقصى وفى تأليف « مقدمته » وكتابه « العبر » أسلوباً جديداً يمتاز بالسهولة والوضوح ، والتعبير الدقيق عن الحقائق ، وقوة التدليل ، وترابط الفكرة ، وحسن الأداء والتناسق ، وتخير المفردات والتراكيب العربية السليمة ، والتخلص من قيود السجع ومحسنات البديع التى كان النثر العربى مكبلا بها فى هذا العهد . ولم يكن أسلوبه هذا فى الحقيقة جديداً كل الجدة ، وإنما كان إحياء للأسلوب العربى الأصيل الذى امتازت به العربية فى عصورها الذهبية الأولى ، والذى يتمثل فى أوضح صورة فى أسلوب عبد الحميد الكاتب فى عصر بنى أمية ثم فى أسلوب الجاحظ ومن إليه من فحول الكتاب فى العصر العباسى . غير أن هذا الأسلوب كان قد اندثر منذ عهد بعيد ، واستبدل به فى مختلف البلاد العربية أسلوب ركيك سقيم ينوء بأغلال السجع ومحسنات البديع ، ويعنى بتزويق اللفظ أكثر مما يهتم بتوضيح المعنى .

ويعلل ذلك ابن خلدون فيقول إنه « ما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم ، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلامحقه فى مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده فى البلاغة وانفساح خطوته ، وولعوا بهذا المسجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال فيه ، ويجبرونه بذلك القدر من التزين بالأسجاع والألقاب البديعية ، ويغفلون عما سوى ذلك » (المقدمة ، البيان ، ١٢٨٧) .

ثم يصف عزوفه عن هذا الأسلوب واصطناعه الأسلوب المرسل السهل فى أثناء توليه وظيفة كتابة السر والإنشاء لأبى سالم فيقول : « وكان أكثر الرسائل يصدر عنى بالكلام المرسل . . . وانفردت به حينئذ ، وكان مستغرباً عندهم بين أهل الصناعة » (التعريف ٧٠) .

وعلى الرغم من سمو هذا الأسلوب وسهولته فإنه لم يكن له أثر يعتد به فى أقلام الكتاب والمؤلفين المعاصرين لابن خلدون ولا فى أقلام من جاءوا بعده فى أثناء القرون الخمسة التالية لوفاته ، وذلك لما كان مسيطراً فى أثناء هذه الحقبة الطويلة على القرائح والأقلام من مظاهر الخمول والجمود وتقديس القديم .

وظل أسلوب الكتابة فى معظم البلاد العربية على حاله القديم حتى طبعت مقدمة ابن خلدون بمصر فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ثم فى بيروت بعد ذلك بقليل ، وعم انتشارها ، وكثر تداولها بين الناس ، وتقرر تدريسها فى بعض معاهد العلم ، وصاحب ذلك فترة ارتقاء ونهوض فكرى ولغوى واحتكاك بالثقافة والآداب الأوروبية ، فأخذت حينئذ أقلام الكتاب والمؤلفين تتأثر بأسلوب ابن خلدون ؛ ولم يمض على ذلك أمد طويل حتى سيطر هذا الأسلوب على جميع مناحى الكتابة من تأليف وصحافة وخطابة ورسائل ؛

وعاد للنثر العربى بفضل ذلك ما كان له فى العهود العربية الأولى من رصانة وصفاء ، وسلاسة وانطلاق .

فأسلوبنا الحالى فى الكتابة مدين إذن لابن خلدون بأهم مقوماته ومناهجه . ولم يكن فضل المقدمة عظيما على العلوم فحسب ، بل كان فضلها عظيما على الآداب كذلك . فكما أفادت العلوم بموضوعها ومادتها أجل فائدة ، إذ أنشأت علماً جديداً هو علم الاجتماع ، أفادت الآداب بشكلها وصياغتها أجل فائدة إذ أنشأت — أو بعبارة أصح « أحيت » — أسلوباً عربياً قويماً يبين عن الفكر بأيسر وسيلة وأمثل طريق ، ويذلل وسائل الفهم والتعبير .

٨ — تلخيص المقدمة لتاريخ كثير من العلوم والفنون وموضوعاتها وفروعها ومذاهب أئمتها ومراجعها ـ ودلالة هذا التلخيص على مظاهر أخرى من نبوغ ابن خلدون

لا تقتصر فائدة المقدمة على ابتكارها فى دراسة شئون الاجتماع وأثرها فى أسلوب الكتابة العربية ، بل تقدم لنا كذلك بحوثاً قيمة فى تاريخ العلوم والفنون وموضوعاتها وفروعها ومذاهب أئمتها وأهم ما ألف فى كل فرع منها . وبذلك تدلنا على رسوخ قدم ابن خلدون فى معظم العلوم والفنون المعروفة فى عصره ، وتكشف لنا عن نواح أخرى كثيرة من مظاهر نبوغه غير النواحى التى تقدمت الإشارة إليها فى الفقرات السابقة من هذا القسم .

وقد عرض ابن خلدون لهذه البحوث فى مواطن كثيرة من مقدمته وخاصة فى الفصول الثانى والثالث والسادس من الباب الأول وفى الفصول العشرة الأخيرة من الباب الخامس وفى معظم فصول الباب السادس . فدرس فنون الفلاحة والبناء والنجارة والحياطة والحياكة والتوليد والطب والخط والكتابة والوراقة والموسيقى والغناء ، ودرس علوم القراءات ورسم المصحف والتفسير والحديث والفقه والفرائض وأصول الفقه والجدل والخلافيات والتوحيد والتصوف والعلوم اللغوية والرياضية والطبيعية بمختلف فروعها والمنطق والفاسفة والإلاهيات وبحوث التربية والتعليم وعلم النفس التربوى والتعليمى . بل تحدث كذلك عن فنون غريبة تدخل فى باب الشعوذة والأسرار الخفية والروحانيات كفنون السحر والطلسمات والكهانة وإدراك الغيب بالرياضة والإدراك الروحانى ، والتنجيم ، واستخراج الغيب عن طريق حساب الجمل ، والطب الروحانى ، والانفعال الروحانى ، والانقياد الربانى ، والإصابة بالعين ، وعلم أسرار الحروف أو السيمياء ، والاطلاع على الأسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية ، واستخراج الأجوبة من الأسئلة ، والاستدلال على ما فى الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية ، والزيرجة ، وقلب المواد ذهباً وفضة . . . وهلم جرا .

ومن العجيب أنه لا يمر مروراً سريعاً على هــذه الطوائف الغريبة من العلوم والفنون ، بل يفصل القول فيها تفصيلا ، ويذكر مناهجها وطرق استخدامها والانتفاع بها وأهم ما ألف فيها ، وأشهر أئمتها . ومن ذلك ما فعله فى الزيرجة إذ وقف عليها فى البابين الأول والسادس نحو أربعين صفحة من مقدمته ، ورسم « زيرجة السبتى » ، وبين بالتفصيل طرق استخدامها واستخراج الأجوبة منها .

القسم الثالث

عرض سريع لأهم الآثار الأخرى لابن خلدون

ترجع أهم الآثار الأخرى لابن خلدون إلى ما يلى :

١ — « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » .

يستغرق هذا المؤلف بحسب طبعة بولاق (التى تم ظهورها سنة ١٨٦٨) سبعة مجلدات تشغل المقدمة التى تدرس ظواهر الاجتماع والتى تكلمنا عليها فى القسم السابق مجلداً واحداً منه ، وتشغل البحوث التاريخية الخالصة ، وهى موضوع حديثنا الآن ، المجلدات الستة الباقية .

وقد قسم ابن خلدون هذه البحوث التاريخية قسمين . درس فى القسم الأول منهما « أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليقة إلى هذا العهد ، وفيه الإلماع ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى إسرائيل والقبط واليونان والروم والفرنجة » . ويشغل هذا القسم أربعة مجلدات من المجلد الثانى إلى المجلد الخامس . ودرس فى القسم الثانى « تاريخ البربر ومن إليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول »[1]. ويشغل هذا القسم مجلدين هما السادس والسابع من مؤلفه .

وقد أجرى ابن خلدون فى القسم الأول من مؤلفه هذا تحقيقات علمية هامة على تراث أسلافه من المؤرخين الذين كتبوا فى تاريخ العرب والإسلام . وضمنه بحوثاً استمدها من مشاهداته وقراءاته الخاصة التى لم يطلع عليها مؤرخو العرب من قبله ومن بعض مصادر كانت موجودة فى عصره ولم تصل إلينا . ويبدو هذا على الأخص فى حديثه عن دول الإسلام فى صقلية ، ودول الطوائف بالأندلس ، والممالك النصرانية فى إسبانيا ، وتاريخ بنى الأحمر فى غرناطة .

ويعد القسم الثانى الخاص بتاريخ البربر أقوى الأقسام أصالة وأكثرها تحقيقاً وتجديداً وطرافة معاً ، وأكبرها فضلا على بحوث التاريخ . وذلك أن معظم ما جاء فى هذا القسم لم ينقل عن مراجع مدونة ، وإنما يسجله ابن خلدون نفسه لأول مرة من مشاهداته فى أثناء اتصاله بمختلف قبائل البربر وتنقله بين دول المغرب .

٢ — « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » ترجم ابن خلدون فى هذا الكتاب لنفسه ترجمة رائعة مستفيضة تحدث فيها عن تفاصيل ما جرى له وما أحاط به من حوادث من يوم نشأته إلى قبيل مماته ، وتحدث عن كل ذلك بدقة المؤرخ الأمين الحريص على الاستيعاب والشمول ، فلا يدع شيئاً مما عمله أو حدث له إلا سجله . وبجانب هذا كله يعرض ابن خلدون فى هذا الكتاب لكثير مما يتصل بتاريخه من حوادث ووثائق وخطب ورسائل وقصائد له ولغيره ، ويصف أحوال كثير من المجتمعات والنظم التى كانت لها علاقة به ، ويصور أحوال العصور التى اجتازها أحسن تصوير ، ويترجم لمعظم من عرض لذكرهم فى كتابه .

وقد ألحق ابن خلدون هذه الترجمة بكتابه « العبر » السابق ذكره ، ووقف عليها فى وضعها الأول نحو مائة صفحة فى آخر المجلد السابع منه ، وجعلها باباً على حدة وانتهى فيها إلى مستهل سنة ٧٩٧ هـ .

---

(١) العبارتان المحصورتان بين علامتى تنصيص لابن خلدون نفسه (المقدمة ، البيان ٢٧١) .

ثم أدخل عليها بعد ذلك تعديلات وتنقيحات وزيادات ، وأضاف إليها تاريخ المراحل الأخيرة من حياته من مستهل سنة ٧٩٧ ه إلى ما قبل وفاته سنة ٨٠٨ ه ببضعة أشهر . فعظم حجم الكتاب بما أضيف إليه ، ودعاه ذلك إلى أن يستبدل بعنوانه القديم عنواناً آخر يدل على شموله لجميع مراحل حياته ، فسماه « التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غرباً وشرقاً » .

٣ – « لباب المحصل فى أصول الدين » . وهو تلخيص لكتاب ألفه الفخر الرازى فى علم التوحيد وسماه « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » . وقد ذكر ابن خلدون السبب الذى دعاه إلى هذا التلخيص وبين الطريقة التى سار عليها إذ يقول فى مقدمة هذا الكتاب إنه « نظراً لإسهاب هذا الكتاب وإطنابه رأى أن يهذبه ويحذف منه ما يستغنى عنه . . . ويضيف إليه بعض زيادات من كتاب الإمام نصر الدين الطوسى وقليلا من بُنَيَّات أفكاره » . وجاء فى نهايته أنه فرغ من مختصره هذا فى التاسع والعشرين لصفر سنة ٧٥٢ ه ؛ أى أنه قد ألفه ولما يبلغ التاسعة عشرة من عمره ، والمرجح أنه أول كتاب ألفه .

وينقسم هذا الكتاب أربعة أقسام : الأول فى البديهيات ؛ والثانى فى المعلومات ويتبعه الكلام على الموجودات عند الفلاسفة وعند المتكلمين ؛ والثالث فى الإلاهيات ؛ والرابع فى السمعيات . ويختم بالكلام على معنى الإيمان والكفر وعلى الإمامة والشيعة وأنواعها

٤ – وقد ذكر ابن خلدون فى كتابه « التعريف » أن تيمور لنك قد طلب إليه أن يكتب له بحثاً فى جغرافية بلاد المغرب الأدنى والأوسط والأقصى ، فأجابه إلى ما طلب ، وكتب له فى ذلك « مختصراً وجيزاً فى اثنتى عشرة من الكراريس المنصفة القطع » (التعريف ٣٧٠) ولكن لم يصل إلينا هذا البحث . ولعله كان مجرد تلخيص لما كتبه عن جغرافية بلاد المغرب فى الباب الأول من « المقدمة » وفى الكتاب الثالث من « العبر » .

٥ – وأثبت ابن خلدون فى كتابه التعريف نصوص كثير من الخطابات التى أرسلها إلى أصدقائه وإلى الأعيان والأمراء والملوك ، ونماذج من عشر قصائد نظمها فى مختلف المناسبات ، وكثيرا من خطبه وبعض ما ألقاه من كلمات فى افتتاحيات مجالس التدريس وبعض محاضراته نفسها ومنها محاضرته التى ألقاها فى فاتحة توليه وظيفة التدريس بمدرسة صرغتمش عن الإمام مالك وموطئه ، والتى أشرنا إليها فيما سبق .

٦ – وقد ذكر لسان الدين ابن الخطيب فى ترجمته لابن خلدون فى كتابه « الإحاطة فى أخبار غرناطة » أن ابن خلدون شرح البردة (قصيدة مشهورة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام للأبوصيرى) ولخص كثيراً من كتب ابن رشد (يقصد كتب ابن رشد الجد وابن رشد الحفيد فى الفقه ، لا فى الفلسفة كما توهم بعضهم ، ككتاب « المقدمات الممهدات » لابن رشد الجد ، وكتاب « بداية المجتهد » لابن رشد الحفيد) ، وعلق للسلطان أيام نظره فى العقليات تقييداً مفيداً فى المنطق ، وألف كتاباً فى الحساب ، وشرع « فى شرح الرجز الصادر عنى فى أصول الفقه » (متن منظوم من بحر الرجز ألفه لسان الدين ابن الخطيب فى أصول الفقه) وشرع ابن خلدون فى شرحه « بشىء لا غاية فوقه فى الكمال »[1] . وقد توفى ابن الخطيب سنة ٧٧٦ ه أى قبل أن يشرع ابن خلدون فى كتابه « العبر » وفى « مقدمته » بأمد غير قصير (شرع ابن خلدون فى كتابة مؤلفه « العبر » و « مقدمته » سنة ٧٧٩ ه) . ولذلك لم يرد لكتاب العبر ولا للمقدمة ذكر فيما كتبه لسان الدين ابن الخطيب عن آثار ابن خلدون .

---

(١) أضاف لسان الدين ابن الخطيب أن ابن خلدون لخص مختصر الإمام فخر الدين الرازى وهو الملخص الذى تكلمنا عليه فيما سبق تحت رقم ٣ .

ولم يصل إلينا شيء من هذه البحوث والرسائل التي نقلناها في النص السابق عن ابن الخطيب ، ولا يحدثنا ابن خلدون نفسه في كتابه « التعريف » عن شيء منها ، مع أنه يبدو عليه في هذا الكتاب الحرص الشديد على تسجيل ما ألفه حتى الخطابات التي كتبها إلى أصدقائه .

فالراجح أن هذه البحوث كانت من بواكير إنتاجه العلمي في شبابه ، وأنه لم ير فيها ما يستحق الذكر ولا ما يفتخر به ، ولم تكن معروفة ولا متداولة ، ولذلك أهمل الإشارة إليها .

٧ – عثر أخيراً على كتاب في التصوف عنوانه « شفاء السائل لتهذيب المسائل تأليف أبي زيد عبد الرحمن ابن أبي بكر محمد بن خلدون الحضرمي » . وقد نشره الأب أغناطيوس خليفه اليسوعي وعلق عليه بما يرجح في نظره نسبته إلى مؤلف المقدمة . ونشره كذلك في سنة ١٩٥٨ الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ومهد له بتمهيد طويل رجح فيه أن المؤلف لهذا الكتاب هو صاحب المقدمة .

ولكن ظهر لنا من شواهد كثيرة ما جعلنا نرجح ، بل نكاد نقطع ، أن هذا الكتاب ليس لصاحب المقدمة بل لباحث آخر ، لعله من أسرة ابن خلدون ، واتفق أن اسمه وكنيته يتفقان مع اسم مؤلف المقدمة وكنيته . وقد سجلنا وجهة نظرنا هذه وأدلتها بشيء من التفصيل في كتابنا « عبد الرحمن بن خلدون » الذي نشرته وزارة الثقافة والإرشاد في سلسلة « أعلام العرب »[1]

(١) انظر صفحات ٢٨٢ – ٢٨٧ من الكتاب المشار إليه .